الإدريسى

صحاب « نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق » ★

للأستاذ الدكتور عبد السميع محمد أحمد

يصف المسلمون العرب « علم الهيئة » فيقولون إنه علم وصف الأرض : ساكنها ومتحركها ، بحارها وأنهارها وخلجانها ، رياحها العاصفة ونسميها . ولم يسمها المسلمون « جغرافيا » كما كان يسميها بطليموس(١) . وأول وجود علم الهيئة كان برسم صورة الأرض على أساس قياس خطوط الطول والعرض ، وأول من رسم الأرض على هذا الأساس محمد بن موسى المعروف بالخوارزمى فى زمان المأمون فإنه عين مواقع المدن والبحور بالدرجات مبنية على علم الفلك ، ثم ترك المسلمون العرب المقاييس بالدرجات وصاروا يرسمون الخرائط اعتماداً على زوايا يضعونها فى مقدمة رسمهم فاختلط بذلك موقع المدن كما حدث فى أوائل القرن الرابع الهجرى حين رسم الخرائط أبو زيد البلخى ثم رسمها بنفس الطريقة ابن حوقل والإصطخرى والمقدسى فى أواسطه .

على أن الأبعاد بين المواقع حددت بعد ذلك ، وأقدم من عينها جماعة منهم الإدريسى .

والإدريسى هو أبو عبد الله محمد بن محمد عبد الله بن إدريس الحمودى الحسنى ، على اختلاف المؤرخين .

وقد توفى الإدريسى فى عهد روجار الثانى ، وبناء على أمره ، على كتابة كتابه : نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق» ، على اختلاف فى عنوان كتابه .

---

(١) أول ماسميت « جغرافيا » فى العصر الحديث سنة ١٣١١ م . - دائرة المعارف الإسلامية .

* ألقى هذا البحث فى الجلسة الثالثة من مؤتمر المجمع بتاريخ ٢٧ من شوال سنة ١٤١٥ هـ الموافق ٢٨ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٥ م .

وقد نَشَر هذا الكتاب كاملا العالمُ الإيطالى جوزيبى توتس بدءا من سنة ١٩٥٥ حينما اتفق مع مطبعة الحكومة الإيطالية على نشر كتاب علمى ، وكوّن له لجنة من العلماء درست الكتاب باهتمام والتزام بقواعد العمل فى نشره إلى جانب لجنة باشرت العمل ، تحت رعاية المعهد الإيطالى لدراسة الشرقين الأوسط والأقصى .

وأخذت لجنة العمل تجوب الآفاق للبحث عند أصوله وبقايا المخطوطات بالمكتبة القومية بباريس وبمكتبات بودلين وصوفيا واسطنبول والقاهرة والموصل ولينينجراد وجمعت أصوله وقارنت بينها وضحت نتائج مقارناتها ورموز أصحاب هذه المقارنات فى هوامش الكتاب [١] .

وذكر الإدريسى ، وهو من نسل النبى (صلى الله عليه وسلم) ومن ثم يلقب بالشريف، فى مقدمة كتابه ويبلغ تسعة أجزاء من القطع الكبير : « إن أفضل ما عنى به الناظر واستعمل فيه الأفكار والخواطر ماسبق إليه الملك المعظم رجار المعتز بالله المقتدر بقدرته ملك صقلية وإيطالية وإنكبردة وفلورية (معز) إمام رومية الناصر للملة النصرانية إذ هو خير من ملك الروم بسطاً وقبضًا وصرف الأمور على إرادته إبرامًا ونقضاً ودان فى ملته بدين العدل واشتمل عليهم بكنف التطول والفضل .... وافتتح البلاد شرقاً وغربا وأذل رقاب الجبابرة من أهل ملته بُعداً وقربًا بما يحويه من جيوش متوافرة العُدد والعَدد وأساطيل متكاتفة متناصرة المدد صدق فيها الخُبر الخبر وتساوى فى معرفتها السمع والبصر ... ثم جمع إلى كرم الأخلاق طيب الأعراق مع شجاعة النفس وصفاء الذهن وغور العقل ... والمعرفةِ بتصاريف الأمور من نهاية الفهم الثاقب ومراقبة كالهم الصائب ... »

وفى هذا النص يذكر الإدريسى فضائل رجار الثانى ، ابن رجار الأول فاتح جزيزة صقلية «ومنتزعها من يدى العرب بعد أن بقيت معهم نحو ثلاثة قرون ، كما تقول هونكه فى كتابها » .

شمس الله تطل على الشرق ، الذى ترجمه إلى العربية الدكتور فؤاد حسنين . وقد ظلت المعالم العربية سائدة حتى بعد فتح الجزيزة ، ومن أبرزها هذا الكتاب

---

(١) ترجمت هذه المعلومات من الإيطالية أ . د . سوزان بدريع إسكندر أستاذ الأدب الإيطالى والترجمة بكلية الألسن ، ج . عين شمس .

العربى اللفظ البليغ الكلمة . وسنعود إليه إن شاء الله ، بعد قليل .

ومن مزايا النص أنه يزكر فى شوال سنة ٥٤٨ هـ . الموافق يناير من سنة ١١٥٣ م . اهتمامه بمآثر الملك رجار وتوحيده الشرق والغرب . (على ماذكر الإدريسى » وأساطيله المحيطة ، وبلاده التى أحاط بها ، وأخلاقه : من العدل ، وطيب الأعراق ، وعطاياه الزواخر .

ويذكر معرفته بالعلوم والرياضيات ، فيقول الإدريسى :

وأما معرفته بالعلوم الرياضيات والعمليات فلا تدرك بعد ولاتحصى بحد ... فمن بعض معارفه السنية ونزعاته الشريفة العلوية أنه كما اتسعت أعمال مملكته وتزايدت همم أهل دولته وأطاعته البلاد الرومية . وأحبَّ أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ويقتلها يقينا وخبرة ، ويعلم حدودها ومسالكها برا وبحرا وفى أى إقليم هى وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار فى الأقاليم السبعة ... بطلب ما فى الكتب المؤلفة فى هذا الفن من علم ذلك كله » ...

وفى النص السابق يجد القارئ معلومات رجار الرياضية ، وحبه لمعرفة حدود بلاده الخاضعة له ، وحدود غيره من الأقاليم السبعة ، والكتب والمراجع التى قرأها وراجعها الإدريسى . وأجاب الإدريسى عن ذلك كله .

إن السبب الحقيقى الذى دفع الإدريسى لكتابة ماكتب هو قراءته بعض المراجع التى لم يجد فيها طلبته ، فلم يجد الوصف الذى يصف به الأقاليم السبعة : نظام الحدود والمسالك لها ، وما يختص به كلٌّ بلد من عوائد ، وتجارة ولغة ، وما يختص بمؤا كلاتهم وما يخص الخارج والداخل فيها .

وإن السبب كذلك أمر رجار له بأن يترجم كل ذلك فى كتاب ، شأن جميع الكتاب حين يضعون أسباب لكتبهم .

وكذلك فيما صنعه رجار من من كرة الفضة الخالصة تكون عنوانا لملكه ولما يصفه فيها ، من وزن أربعمائة رطل رومى ، كل رطل منها مائة واثنا عشر درهما ، وأن ينقل العمال فيها صور الأقاليم السبعة وأقطارها ، وسوقها وريفها ، وخلجانها وبحارها ، وعامرها وغامرها ، وما بين كل بلاد منها من طرق

ومسالك ، وأن يرسم كل شئ على « هيئته وصورته ، وأن يُؤلَّفَ له كتابٌ يجمع كل ذلك ؛ وسمى هذا الكتاب باسم يختاره هو ، «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » .

أما الكتب التى قرأها الإدريسى ولم يجد فيها طلبته فقد عددها بنفسه فى كتابه ، وهى :

كتاب «العجائب» للمسعودى (ت ٣٤٦ هـ .) ، وكتاب أبى نصر سعيد الجِيهانى، وكتاب أبى القاسم عبيد الله بن خَرّداذبة (ت أواسط القرن الثالث الهجرى » وكتاب أحمد بن عمر العذرى ، وكتاب أبى القاسم محمد الحوقلى البغدادى (أواسط القرن الرابع الهجرى) ، وكتاب خاناح بن خاقان الكيمائى ، وكتاب موسى بن قاسم القردى ، وكتاب أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبى (ت ٢٧٩ هـ . [1]) ، وكتاب إسحق بن الحسن المنجم ، وكتاب قدامة البصرى ، وكتاب بطلميوس الأقلودى وكتاب أرسيوس الأنطاكى .

والأقاليم السبعة التى عناها الإدريسى وغيره ممن ألف فى علم الهيئة أو فى الجغرافيا فتبدأ من بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) وتنتهى ببحر الصين ، ومن الجنوب الربع المسكون من الأرض . وقد وصف الإدريسى فى كتابه شكل الأرض بعد ما قدم أن خط الاستواء يقسم الأرض قسمين وأن الجغرافيين يتبعون ماذكره بطلميوس الأقلودى وماكتبه غيره ممن ألف فى علم الهيئة ، وأن هذه الأقاليم السبعة كانت معروفة لدى المؤلفين المسلمين العرب ، وكانت معروفة لدى صاحب معجم البلدان وأشار إليها كثيرا .

وبعد المقدمة لكتابه يبدأ الإدريسى حديثه عن الإقليم الأول بقوله : « وها هنا نفضى إلى ذكر الجزء الأول من الإقليم الأول والحمد لله رب العالمين » .

ويقسّم الإدريسى الإقليم الواحد إلى أجزاء عشرة غير البدء والنهاية ؛ فعدد أجزاء الكتاب أو عدد صوره ، (والتعبيران مأخوذان من كتابه) ، اثنان وسبعون صورة .

ويقول فى الصورة الأولى : « وأول ما أبتدئ به من ذلك الكلام على صورة الأرض المسماة بالجغرافية كما سماها بطلميوس

---

(١) السنوات المبينة ليست من صنع الإدريسى .

ووصفها به ومن الله نستمد المعونة والتوفيق والتسديد فى كل منهج وطريق فهو جلت قدرته بذلك جدير وعليه قدير » .

ويقول فى الإقليم الأول : « إن هذا الإقليم الأول مبدؤه من جهة المغرب من البحر الغربى المسمى ببحر الظلمات وهو البحر الذى لايعلم ماخلفه وفيه هناك جزيرتان تسميان بالخالدات ومن هذه الجزائر يبدأ بطلميوس بأخذ الطول والعرض ... » (حـ ١ /١٧) .

ويصنف بعد ذلك المدن ومايوجد فيها ويسير إلى موقع النيل ، فيتحدث عن مجراه وعدد جزره التى يضمها فرعه إلى انقسامه ، ثم ضم فرعيه الرئيسيين بعد القسمة ، شرقه وغربه ، وكثرة مائه وقلته ، ويقول :

« إن الناظر إذا نظر إلى هذه الصفات المصورة (صـ ١٣ - ١٤ من نفس الجزء) والبلاد المذكورة رأى منها وصفا صحيحا وشكلا صبيحا ... » (حـ ١ صـ ١٧) .

فالصورة التى عناها الإدريسى هى نفس تصويره وما كتبه فى هذا الكتاب .

وفى الجزء الثالث من الإقليم الثالث (حـ ٣ / صـ ٣١٧ إلى صـ ٣٤٦ ، وهو آخر الجزء) : بعد أن يتحدث عن « أسوان » ويلحقها بإقليم النوبة ويصف الطريق من «برقة» إلى « الإسكندرية :

« يدخل النيل الغربى منها (الإسكندرية) تحت أقبية دورها كلها ....» وبعد أن يصفها وصفا كاملا ، يتحدث عن النيل ومدته وكوره وقراه ، مدينة مدينة ، حتى أسوان .

وفى الإسكندرية : يتحدث عن المنارة حديثا ممتعا ، وعن ارتفاعها ، وأن المراكب ترى النار فى وسطها من بعيد فتعرف مكانها وتهتدى . وفى القاهرة ، ويسميها الناس كما سماها الإدريسى « مصر » يعنى «الفسطاط» ، يصف « دار المقياس » وصفا ممتعا ، وكيف يصل ماء النيل إليها ، وعمود المقياس وماكتب عليه ، ويقول « أخبر الحوقلى فى كتابه أن لها سحرا ، «وبها مسجدان جامعان للجمعة والخطبة » (حـ ٣ / ص ٣٢٤ س ٢) .

وفى مدينة الفيوم : يذكر سبب تسميتها « الفيوم » (حـ ٣ / صـ ٣٢٨ / ٥ من أسفل) . ويذكر الإدريسى « وادى اللاهون » ونهره وإجراء الماء فيه ، وإقطاع يوسف عليه

السلام هذه المدينة . ويصف كل مدينة فى النيل حتى «أسوان» فيذكر كيفية الوصول إليها ، وطول المسافة بين ما قبلها وما بعدها ، وفر روعاتها ودخلها وخرجها ، وأسواقها إن وجدت ومواعيد عقدها . وهكذا فى الأقاليم السبعة . وفى نهاية كل جزء يذكر الإدريسى : نجز هذا الجزء ، أوهذا الإقليم .

وفى أول الجزء الثانى أو الإقليم :

يذكر ما يشتمل عليه الجزء من المدن أو البلاد ، وما سوف يصنعه فيه .

ويقول فى الجزء العاشر من : الإقليم السابع :

« إنّ هذا الجزء العاشر من الإقليم السابع كله مظلم لا عمارة فيه ألبتة ولايعلم ما خلفه فهذا جميع ما اتصل إلينا من أوصاف الأرضين من معمور وغير معمور فتبارك الله رب العالمين وهو على كل شئ قدير والله تعالى حسبنا ونعم الوكيل .

وهنا انقضى الكتاب المعروف بنزهة المشتاق فى اختراق الآفاق والحمد لله رب العالمين (حـ ٨ / ص ٩٦٣ / س٢ » .

وهذا الكتاب ، كما نرى من نصوصه المدونة هنا ، خالٍ من علامات الترقيم المعروفة، (فاصلة ، وفاصلة منقوطة ، ونقطة ، وعلامات استفهام أو تعجب) ،

وولیه جزء تاسع ينتهى بصفحة ١٠٩٠ وكله ما نشر فى هوامش أجزائه الثمانية .

وأسلوب الإدريسى فى كتابه ينتمى إلى عصر ابن العميد ، وهو مزدوج الفقرات ، مسجوع فى المواضع التى يجوز فيها الازدواج ، والسجع ، وتعبيراته رصينة ، والتكلف فى ذلك غير ملاحظ إذا نظر أنه فى عصر يجوز فيه ماصنعه الإدريسى .

وقد جاءنى هذا الكتاب جزءا جزءا وآخر ما جاءنى كان الجزء الثامن ، وتاريخ وصوله ٧/ ٥ / ١٩٨٠م .

أما الجزء التاسع والأخير :

فتاريخ انتهاء طبعه كان يونيو ١٩٨٤م. وبقى كتاب « المحبين لدراسة الترحال فى بقاع الأرض» وعسى أن يصلنى إن شاء الله كما وصل إلى «نزهة المشتاق» ، بعناية ورعاية الأستاذ الدكتور كليليا سارنيللى تشاركوا أستاذ وعميد معهد الدراسات الإفريقية والشرق أوسطية ، وهو معهد بين معاهد كثيرة جامعية فى نابلى بإيطاليا ، فشكرا كثير لعنايتها ورعايتها .

عبد السميع محمد أحمد

عميد الألسن الأسبق

عضو المجمع